(2)

المركزية المطلقة

يقوم فكر الجماعات الإسلامية وفي مقدمتهم الجماعة الأم «الإخوان المسلمين» على ادعاء تملك الحقيقة الكاملة، متمثلة في الإسلام الصحيح الذى يدعون إليه، ويقومون على أمره، وتتلاشى المسافات بين النص وفهم النص؛ ليصبحا شيئا واحدا، وتذوب الفواصل بين المسلمين والإسلام، فالجماعة هي الإسلام، فلا عجب أن يُطالعك البنا في عنوان رسالته إلى الشباب بقوله: «دعوة الإسلام في القرن العشرين أو دعوة الإخوان المسلمين»[1] هكذا جاءت صياغته: الإسلام أو الإخوان مترادفات دلالية، وتراها في قوله: «سيقول الناس ما معنى هذا وما أنتم أيها الإخوان؟ إننا لم نفهمكم بعد، فأفهمونا أنفسكم وضعوا لأنفسكم عنواناً نعرفكم به كما تعرف الهيئات بالعناوين، هل أنتم طريقة صوفية؟ أم مؤسسة اجتماعية؟ أم حزب سياسي؟ كونوا واحداً من هذه الأسماء والمسميات لنعرفكم بأسمائكم وصفتكم، فقولوا لهؤلاء المتسائلين: نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة، وطريقة صوفية نقية، وجمعية خيرية، ومؤسسة اجتماعية، وحزب سياسي نظيف، وقد يقولون بعد هذا كله مازلتم غامضين فأجيبوهم: **نحن الإسلام**.»[2]

وتتحول الجماعة بهذا الخطاب - بوعي أو لا وعي - من كونها مجرد مجموعة من المسلمين إلى كونها مركز الإسلام ومحوره الذي ينبغي أن

(1) رسالة إلى الشباب. ص7.

(2) حسن البنا. مجلة النذير العدد 3 السنة الثانية 15 محرم 1358هـ - 7 مارس 1939م.

تدور في فلكه الأفراد والمجتمعات بل وينبغي أن تذوب فيه الدول عاجلا أو آجلا.

فالدنيا تنتظر جماعة الإخوان بوصفها المُخَلِّص - وفق رؤية مؤسس الجماعة - «العالم كله حائر يضطرب، وكل ما فيه من النظم قد عجز عن علاجه ولا دواء له إلا الإسلام، فتقدموا باسم الله لإنقاذه، فالجميع في انتظار المنقذ ولن يكون المنقذ إلا رسالة الإسلام التي تحملون مشعلها وتبشرون بها.»[1] وهنا خلط بين الرسالة بمفهومها النصّي قطعيّ الدلالة قطعي الثبوت المُسلم له بالقداسة والعصمة، وبين فهم الجماعة البشري للرسالة الذي يُصيب ويُخطئ، ويمتلك حلولا ويعجز عن بعضها، فما تقدمه جماعة كالإخوان ليس الإسلام بل فهمهم للإسلام.

وبادعاء الجماعة امتلاك الإسلام يُصبح لها حق الوصاية على المجتمع، ويشعر أفراد الجماعة بحالة من التمايز بالإسلام عن المسلمين، فكما يقول البنا «نحن أيها الإخوان ولا فخر صحابة رسول الله ﷺ هذه منزلتكم فلا تصغروا أنفسكم فتقيسوها بغيركم... ما عليه القرآن فهذا هو الإخوان.»[2] فالجماعة تنطلق من ثقافة التفوق والتميز باعتبارهم ممثلي الحقيقة المطلقة، فتنظر إلى غيرها من القيم والنسق الفكرية نظرة احتقار واستصغار، فَهُمُ الإسلاميون الساعون دون غيرهم من المسلمين إلى إقامة الدولة الإسلامية في مفهومها الشامل، أما غيرهم من المسلمين فلديهم قصور ديني في الفهم والتطبيق، يكفيهم تقصيرًا أنهم لم ينخرطوا في الجماعة الساعية إلى إقامة

(1) ينظر: رسالة إلى الشباب. ص11.
(2) مجلة النذير، العدد السابق.

دولـة الخلافة، ومادام هؤلاء المقصرون من المسلمين في حالة غفلة عن إسلام الدولـة، فالأمر يستوجب حالة من التوجيه الـذى يتفاوت بين خطاب ناعم رقيـق معلن، وخطـاب تمييزي حاد في الغـرف المغلقة يحفظ لأبنـاء التنظيم خصوصية تمنعهم من التلاشي في المجتمع، و يتولد شـعور خفي غالبا، ومعلن حينـا بالوصاية على المجتمع، يُلقن لأبناء الجماعة بشكل واضح في مقرراتهم الثقافية الأسبوعية تحت عنوان (إرشاد المجتمع)[1]

فعلى عاتقهم دون غيرهم يقع واجب النهوض بأمر الدين واستنهاض همم هؤلاء الغافلين من أبناء الدين الإسلامي، والسعي لإقامة الحكومة الإسلامية عـلى حدّ قـول الدكتور القرضـاوي: «إن قومًـا فقدوا الإسـلام في أنفسهم، وبيوتهـم وشـؤونهم الخاصـة والعامـة لأعجز مـن أن يفيضوه عـلى غيرهم و يتقدمـوا بدعوة سواهم إليـه وفاقد الشيء لا يعطيه. ليسـت هذه مهتمهم أيها الإخوان، فقد أثبتـت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها، ولكنها مهمة النشء الجديد، فأحسنوا دعوته وجدُّوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب، واستقلال الفكر والعقل، واستقلال الجهاد والعمل، واملئوا روحه الوثابـة بجلال الإسـلام وروعة القـرآن، وجندوه تحت لـواء محمد ورايته، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه و يسعد غيره.»[2]

(1) البرنامج التثقيفي للجماعة من مكوناته مذكرة «إرشاد المجتمع»، تم تقريرها على الصف الإخواني منذ تولى أ/مهدى عاكف منصب المرشد، ثم تمَّ دمجها في كتب المنهج التثقيفي التي تم طباعتها تحت عنوان نور الإسلام وباسم مؤلف مستعار بأجزائه الثلاثة من دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة المقرر دراسته على أبناء الصف ممن تمّ توثيقهم توثيقا أوليا تحت مسمي أخ منتسب ثم أخ منتظم تمهيدا لترقيته إلى مرتبة أخ عامل الرتبة التنظيمية للأخ الحقيقي داخل الجماعة..

(2) من فقه الدولة الإسلامية، ص22.

فالجماعة ترى نفسها حركة البعث الإسلامي، وخطابها خطاب الصحوة الإسلاميـة في زمن مـوت وغفلة المسلمين، على حدّ قـول سيد قطب: «نقطة البدء الصحيحة في الطريـق الصحيح هي أن تبين حركات البعث الإسلامي أن وجـود الإسـلام قد توقف، هـذا طريق.. والطريق الآخـر أن تظن هذه الحركـات لحظة واحدة أن الإسـلام قائم وأن هؤلاء الذيـن يدَّعون الإسلام ويتسمَّـون بأسـماء المسلمـين هم فعـلا مسلمـون. فإن سـارت الحركات في الطريـق الأول سارت على صراط اللـه وهداه، وإن سارت في الطريق الثاني فستسـير وراء سراب كاذب تلوح لها فيـه عمائم تحرِّف الكلم عن مواضعه وتشتري بآيـات الله ثمنا قليلا وترفع راية الإسلام عـلى مساجد الضرار.»[1] وتترسـخ بذلك رؤية أحادية في التعاطي فهم يمتلكون الحق ملكية حصرية، لا تتجاوزهم إلى غيرهم، وهم من الإسلام في موضع الإحاطة المطلقة التي لا مكـان فيها لأي نسبية، مغفلـين حقيقة أن طرحهم حول الإسلام ليس سوى محاولة فهم له، وكل ما ينتجه العقل هو نسبي وليس حقيقة مطلقة.

ويترتب على التمركز حول ذاتهم ممثلة الإسلام الصحيح، والناطقة الوحيدة باسم الحق حالة من الجمود في الفكر وتوقف حركة التغيير والتطوير، وغياب التعدديـة، فلا مجال مـع الحق الثابـت إلى النقد العقـلي، أو الاجتهاد الفكري، وتغدو الجماعة بتشرنقها داخل التنظيم قادرة على البقاء عاجزة عن النمو، يُحكم التنظيـم سيطرته مغرقا أفـراده في غيابات بئره المظلمة، فيغيب شـعاع المعرفة الـلازم لبناء ضوئي لا غـنى عنه لنمو الكيانات البشرية، فـلا تقبل الجماعة أي تلاقح فكري يمكنها من إجراء مراجعة أو تعديل مسار.

(1) سيد قطب. العدالة الاجتماعية. ص216. دار الشروق. القاهرة.

وهذه الحالة من المركزية في خطاب جماعة كالإخوان المسلمين دفعها إلى إقامة تنظيم شمولي يمارس الدعوة والفن والاقتصاد والحزبية والعمل الخيري (البر) ظنا منها أنها تقدم بذلك نموذجا شموليا صحيحا للإسلام، بينما تحولت الجماعة إلى تنظيم شمولي صاحب سلوك استبدادي تُسيطر على قواعده ولجانه قيادةُ مركزية ساعية من خلال تمدّد التنظيم إلى السيطرة على مفاصل الدولة متى أتيح لها ذلك بدافع من نية حميدة مفادها إرضاء الله بنشر الإسلام الصحيح و إقامة الدولة الإسلامية، هذا الدافع الديني تحرص قيادات الجماعة على ترديده كي تلهم قواعدها التنظيمية طاقة رُوحية للمضي في الطريق الذى رسمه قادتهم.

وفي هذا الطريق يبدو الإسلام وكأنه قدّم أدقَّ التفاصيل للدولة، تحت شعار الإسلام دين ودولة، والإسلام هو الحل، وأنهم يمتلكون تلك التفاصيل لعلاج المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتراكمة، وتُمسى الجماعة معادلا للإسلام الشمولي، ويبدو ما تقدّمه الجماعة منتجا متكاملا يعلوه ختم إلهي، فيبدو الدخول في مواجهة معها بأنه مواجهة مع الدين وليس جماعة تدين الفكر، ومثل هذا يفقد المجتمعات حيويتها وقدرتها على التدافع الطبيعي والتنافس الضروري للتغيير والتطوير.